أفكار متقاطعة

«يوتوبيا» متسامية نظريّاً لا تنزل إلى أرض الواقع (2)

خلاص قائم على الذكاء والمعرفة وآخر على الفضيلة الدينيّة والأخلاقيّة

■ جورج كعدي

بقفزة تاريخيّة من الزمن اليونانيّ القديم و«جمهوريّة» أفلاطون و«يوتوبياه» التي كانت محطتنا الأولى في هذه الأفكار، إلى «يوتوبيّات» عصر النهضة بعد خمسة عشر قرناً، نقع على أفكار مثيرة لفلاسفة ومصلحين دينيّين، فعقل الإنسان لم يكفّ عن الاهتمام ببناء مجتمعات مثاليّة خياليّة تعتمد على المبادئ الأخلاقيّة والدينيّة مثل اعتمادها على الرفاه الماديّ في آن واحد. ومن أبرز ممثّلي هذا الفكر «اليوتوبيّ» في عصر النهضة أغسطينوس وتوما الأكويني، القدّيسان في الإيمان المسيحيّ، وللأوّل مؤلّفه المشهور «مدينة الله»، وللثاني مؤلّفه المشهور أيضاً «أصول الحكم» (كتب في القرن الثالث عشر).

أدرك توما الأكويني مثلاً حقيقةً، وإن ذات جوهر «يوتوبيّ»، تنطبق على جميع الأزمنة والعصور وعلى سائر المجتمعات البشريّة ونظم الحكم، تتعلّق بالتأثير المدمّر للتجارة على الجماعة أو المجتمع، قائلاً في هذا المقطع البليغ: «إذا كرّس المواطنون حياتهم لشؤون التجارة فسيصبح الطريق مفتوحاً لرذائل عديدة، فما دام الهدف من التجارة يقود بصفة خاصة إلى كسب المال، فإنّ ممارسة التجارة توقظ الجشع في قلوب المواطنين. والنتيجة هي أنّ كل شيء في المدينة سوف يُعرض للبيع، وتدمّر الثقة، ويُفتح الطريق لأنواع الغش والخداع كافّة، وسوف يعمل كلّ فرد لأجل ربحه الخاص فحسب ويحتقر المصلحة العامة (...)». لا شيء أكثر تطابقاً مع الجشع الماديّ للشركات والأفراد في زمننا الرأسماليّ المتوحّش الراهن من هذا الوصف الرؤيويّ الصائب الذي يعود إلى القرن الثالث عشر، وإن في قالب طوباويّ أو «يوتوبيّ» لم ولن يجد طريقه يوماً إلى الإلغاء أو التعديل، طالما أنّ الجشع الفرديّ وغير الفرديّ (لدينا جشع الدول أيضاً) هو من شروط الوضع الإنسانيّ غير القابل للإصلاح، في تقدير كاتب هذه السطور والأفكار المتقاطعة، وأيّ نظريّة مثاليّة في هذا الصدد أو سواه آيلة إلى السقوط الحتميّ.

بنزعته اللاهوتيّة التنسّكية والتصوّفية، المفكّرة والناطقة دوماً بالمثل والمبادئ التي تتلافاها العامّة غالباً، رأى الأكويني أنّ السعادة الإنسانيّة تعتمد على الأخلاق والرفاه المادّي معاً، وأنّ ثمّة شرطين ضروريين ليحيا الفرد حياة سعيدة، أوّلهما وأهمّهما أن يسلك سلوكاً فاضلاً، فالفضيلة تتيح للإنسان أن يحيا حياة رضيّة. أمّا الشرط الثاني وهو ثانويّ ويعتبر أداة أو وسيلة، فهو توافر ما يكفي من الخيرات المادّية الضروريّة لأن يسلك المرء سلوكاً فاضلاً.

في المقلب الآخر العلمانيّ، غير الدينيّ أو اللاهوتيّ، لدينا في عصر النهضة الأديب والطبيب والموسوعيّ الكبير الرائع فرنسوا رابليه (1494 ـ 1553) الذي يعتبر نموذجاً لإنسان عصر النهضة، ذا معرفة موسوعيّة، شديد الإعجاب بالأدب الإغريقيّ، كارهاً للمذاهب المدرسيّة، «وثنيّاً» في مسيحيّته (دخل عالم الرهبنة لكن سرعان ما هجره لدراسة الطبّ). اشتهرت لرابليه أعمال كثيرة، خاصة تلك استلهمها تحت عناوين متفرّقة من الحكايات الشعبيّة حول شخصيّة العملاق «غارغانتويا» مازجاً في كتاباته الحادّة والساخرة بين الفانتازيا والواقع، كما لو أن الجنون يقود إلى الحكمة في نظره، مقترحاً حياة مثاليّة قائمة على المعرفة والصفاء والحرية. لكنّ «دير تيليم» Abbayer thélème الذي ابتدعه رابليه في مؤلّفه «غارغانتويا وبانتاغرويل» هو ما يهمّنا هنا في سياق الكلام على «اليوتوبيا»، فهذا «الدير» يضمّ بحسب مخيّلة رابليه الفذّة جماعة علمانيّة مختلطة، مثقّفة ونخبويّة، تُختصر قاعدة حياتها في جملة واحدة: «إفعل ما تشاء». جماعته الخياليّة هذه تجسّد روح النهضة على أكمل وجه. لم يهتمّ رابليه كثيراً بـ«المسائل الاجتماعيّة» إذ كان تمرّده فرديّاً محضاً وغير مرتبط بالتمرّد على النظام الاجتماعيّ. فالنهضة لم تكن في الواقع حركة إصلاح بل حركة تمرّد قام بها أفراد سعوا إلى نيل الحريّة لأنفسهم أوّلاً. «دير تيليم» يعكس «يوتوبيا» الأرستقراطيّة الجديدة في عصر النهضة، القائمة على الذكاء والمعرفة لا على القوة أو الثروة. يصف رابليه كيف ينبغي أن تكون حياة هؤلاء الرجال والنساء في «دير تيليم» متميّزة بالأصل الطيّب والتربية الراقية والموهبة والصحّة، وهم ليسوا في حاجة إلى قوانين أو محامين، ولا إلى سياسة أو مرشدين، ولا إلى مال أو مرابين، ولا إلى دين أو رهبان... كما أنّهم في غنى عن أيّ قواعد تتحكم فيهم، إذ يحسنون استغلال وقتهم على أفضل نحو، ولا يحتاجون إلى التقيّد بأيّ قيود أخلاقيّة تُفرض عليهم من الخارج، فهم بطبيعتهم أمناء، مفطورون على المشاعر النبيلة، قادرون على الاستمتاع بالحرية والمساواة الكاملتين بين الرجال والنساء...

«دير» رابليه هذا جذّاب، شديد الإغراء، لكن كم هو سهل وعمليّ إنزاله من سماء «اليوتوبيا» إلى أرض الواقع؟!... (يتبع).

«دير» رابليه يتمرّد على مواضعات عصره

«افعل ما تشاء» شعار نخبة مثقّفة حرّة وعلمانيّة

فيما كنت أدوّن «أفكاري المتقاطعة» (راجع الكادر إلى يمين هذه الصفحة) وأعرّج على «دير» الأديب والمفكر الكبير الخالد فرنسوا رابليه، أحد أعلام عصر النهضة في أوروبا القرن السادس عشر، لم أجد في السياق الوافي بما سمّاه رابليه في كتابه «غارغانتويا وبانتاغروييل» بـ«دير تيليم» Abbaye Thèlème، وهو مكان «يوتوبيّ» من نسج خياله يجتمع فيه أرستوقراطيّون من الرجال والنساء، نخبويّون ومثقّفون وعلمانيّون، يدينون بالمعرفة والذكاء فحسب ولا يقيمون وزناً للقوّة أو للثروة، وشعار حياتهم المختزل «إفعل ما تشاء»، رافضين أيّ قيد أخلاقيّ، ومستمتعين بالحريّة والمساواة بينهم جميعاً، رجالاً ونساءً، علماً أن الأمر لا يتعدّى في النهاية حدود الخيال، أي خيال مبتدع هذا المكان وخالق جماعته.

ماذا يمكن أن نضيف، لإكمال «الأفكار» المشار إليها، حول «دير» رابليه المثير هذا، المتمرّد على أخلاقيّات عصره ومواضعاته التقليدية؟

هنا مقاطع من نصّ رابليه مع شرح وتعقيب.

ج.ك

«...كان هناك صف من البيوت التي تحف بها غابة تيليم ويبلغ امتدادها مسافة نصف هكتار، وهي بيوت شديدة الأناقة والنظافة يسكنها الصناع المتخصصون في صياغة الذهب وصقل الجواهر والأحجار الكريمة، والمشتغلون في التطريز والحياكة والتذهيب والسجاد وصنع جراب الأسلحة، وكلّ منهم متفرغ لحرفته التي وهبها لخدمة أولئك الرجال والنساء المرحين الذين ذكرناهم، وهم الرهبان والراهبات من الطراز الجديد...».

التعليم الذي يتلقّاه أهل تيليم من النوع الذي يلائم أمراء المستقبل أو رجال البلاط والحاشية، وهو شبيه بنظام التعليم الذي وضعه كاستيليونه لرجل البلاط المثالي في عصر النهضة.

«على رجل البلاط أن يكون ملمّاً بجميع الألعاب الرياضية النبيلة، ومنها الجري، والقفز، والسباحة، والمصارعة، ويجب قبل كل شيء أن يتقن الرقص، وأن يكون بطبيعة الحال بارعاً في ركوب الخيل. وعليه أن يتقن عدة لغات، وأهمها اللاتينية والإيطالية، كما يجب أن يكون مطلعاً على الأدب ولديه إلمام بالفنون الجميلة...».

هذا التعليم الذي يتلقّاه الأخوات والإخوة المرحون من رهبان «دير تيليم» وراهباته يمكن أن يبلغ مستوى عالياً من الكمال الفردي، لكنه منفصل على نحو غريب عن أي غرض نفعي. ويبدو أن أهل تيليم لم يشغلوا أنفسهم بتعلم أيّ مهنة أو حرفة نافعة، بل بأن تكون لديهم مجموعة من الخدم تحت تصرّفهم مدى الحياة. ويستبعد عليهم أيضاً أن يستمتعوا بأي عمل لا يخرج في النهاية على كونه مجرد تدريب بدنيّ أو عقليّ ولا يهدف على الإطلاق إلى تحقيق شيء مفيد.

لا بد من الاعتراف بأن الحياة في دير رابليه، رغم روعتها وأبهتها، سرعان ما تصبح حياة مملّة، وبأنّ السأم سيزحف إلى نفوس أهل تيليم مثلما زحف إلى نفوس عدد كبير من الأمراء ورجال الحاشية الذين عاشوا في بلاط كثير من القصور الفخمة. ولا بد من أن نتذكر أيضاً، لكي نكون منصفين لرابليه، أن جماعته المثالية ليس فيها ملك ولا أمير ينتظر من يتملّقه أو يسليه.

الملاحظات السابقة كان ممكناً الاستغناء عنها، لو لم ينس معظم الذين تحمّسوا لعبارة رابليه المشهورة «افعل ما تشاء» أنه لم يقصد بها إلاّ أولئك الذين يقول عنهم إنهم:

«... مفعمون بالحيوية، والظرف، والصحة، والنشاط، والمرح، والذكاء، والفرح، والابتهاج، متأنّقون، مهذّبون، ميّالون إلى الدعابة والمجون، وفي اختصار هم سادة رقيقون وبالحب والاعتزاز جديرون ... والسيّدات من ذوات الأصل الكريم، حلوات، ساحرات، بالجمال والشباب مشرقات، طبيعيّات، محبوبات، خلوقات، وسيمات، رقيقات، رائعات، ودودات، خفيفات، مرحات، فاضلات، مؤنسات، حنونات، أنيقات، ساطعات، ناضجات، نادرات، غاليات، فاتنات، مغريات، كاملات، حكيمات، ودودات، رائعات بالعذوبة والنضارة آسرات».

يبقى «دير تيليم»، رغم الشروط القاسية للقبول فيه وإسراف أهله في التعلّق بالترف، قصة خياليّة أو «فانتازيا» ممتعة ومبهجة، ونكتفي هنا بالفصلين الآتيين:

«هنالك لم يبق إلاّ الراهب وحده، الذي أراد غارغانتويا جعله رئيساً لدير أشبيلية، لكنه رفض هذا العرض، وكان في إمكانه أن يعطيه دير بورجيه أو دير القديس فلوران ـ الذي كان أفضل منه ـ أو كليهما لو شاء ذلك، لكنّ الراهب ردّ عليه رداً قاطعاً بأنه لن يتولى شؤون الرهبان ولن يتحمل مسؤوليتهم، إذ كيف أستطيع (كما قال بنفسه) أن أحكم غيري وأنا لا أملك أمر نفسي: وإذا تصوّرت أنني قدمت إليك في الماضي أو يمكن أن أقدم إليك في المستقبل أي خدمة ترضيك، فاذن لي بأن أقيم ديراً يوافق تفكيري وخيالي ـ وأعجب غارغانتويا بالفكرة التي سرّته كثيراً، فعرض عليه إقليم تيليم الذي يقع قرب نهر اللوار ويمتد مسافة هكتارين في غابة بور ـ أوا العظيمة، وعند ذلك طلب الراهب من غارغانتويا أن يؤسّس نظامه الديني المخالف للأنظمة الأخرى كافة. قال له غارغانتويا: أوّل ما ينبغي لك الانتباه إليه هو ألاّ تبني جداراً حول الدير الذي تزمع إنشاءه، لأن جميع الأديرة الأخرى مسوّرة بجدران قوية وأسوار منيعة ـ قال له الراهب، ولم يكن ذلك بغير مبرر (إذ رأى أن الجدار والسور مترادفان): حيثما وجد سور أمامي وسور خلفي فقد وجد الهمس، والحسد، والتآمر الذي لا ينتهي. ولمّا كانت بعض الأديرة في العالم قد جرى العرف فيها بأن أيّ امرأة تدخله (وأعني بذلك كل امرأة طاهرة شريفة) تكلف مباشرة مسح الأرض التي مشت عليها، فقد صدرت الأوامر بأنّ أيّ رجل أو امرأة سبق لهما الدخول في الأنظمة الدينية، وشاءت المصادفة أن يدخلا هذا الدير الجديد، فلا بد من غسل جميع الغرف التي عبراها وتنظيفها تنظيفاً تاماً، ولما كان كل شيء في الأديرة الأخرى يوجّه ويحدّد وينظم بالساعة، فقد أصدر أمره بإخلاء المبنى الجديد من أي ساعة أو مزولة، وأن ترتّب كل ساعاتهم بحسب المناسبات والظروف العارضة، والسبب في هذا (كما قال غارغانتويا) هو أن الخسارة الكبرى في رأيه تأتي من عدّ الساعات، إذ ما الفائدة التي تعود على الإنسان من وراء ذلك؟ وهل في الدنيا بلاهة أعظم من أن يوجّه الإنسان حياته وينظمها على صوت جرس، لا على ضوء تقديره وفطنته؟

أضف إلى ذلك أنهم في ذلك العهد لم يقبلوا دخول أيّ امرأة في الأديرة، إلاّ إذا كانت مصابة بالعمى أو العشى، مشلولة أو عرجاء، تعسة الحظ أو مشوّهة، بلهاء أو متلبّدة الذهن، منحرفة أو فاسدة، ولم يسمحوا كذلك لأيّ رجل بدخوله إلاّ إذا كان عليلاً أو منحرفاً، وضيعاً قليل الأصل أو سكّيراً نكداً مشاكساً. هنا قال الراهب لنرجع إلى موضوعنا، فأيّ نفع يرجى من امرأة لا هي جميلة ولا هي طيّبة؟ أجابه غارغانتويا: لكي تصبح راهبة. وردّ عليه الراهب: وتحوك القمصان والثياب. وهكذا صدرت التعليمات بألاّ تقبل امرأة في هذا النظام الدينيّ (الجديد) إلاّ إذا كانت جميلة، متناسقة الملامح، حلوة الطبع، ولا يقبل كذلك أيّ رجل لا يكون وسيماً، جذاباً، لطيف المعشر.

ولأنّ أديرة النساء لم يكن يدخلها الرجال إلاّ بالحيلة، أو سراً أو عن طريق التسلل، فقد تقرر ألاّ تعيش فيه (أي في الدير الجديد) نساء في غيبة الرجال، ولا رجال في غيبة النساء.

ولأنّ الرجال والنساء جميعاً، الذين كانوا يقبلون في تلك الأنظمة الدينية بعد إتمام تعليمهم واجتيازهم سنة الاختبار المحدّد لهم، كان يفرض عليهم أن يقيموا هناك طوال أيام حياتهم، فقد قضت الأوامر بأنّ كل من يقبل في الدير (الجديد) من النساء أو الرجال، يكون له الحق الكامل في أن يغادره آمناً راضي النفس، وفي أي وقت يشاء.

وأخيراً، ولمّا كان المعتاد أن يقسم الأتقياء من الرجال والورعات من النساء ثلاثة أيمان يتعهدون فيها بالمحافظة على العفة، والفقر، والطاعة، فقد وضعت القواعد وسنّت القوانين التي تعطي الحق لكل من يدخل الدير (الجديد) في أن يتزوج زواجاً شريفاً، وأن يتملّك الثروة ويعشي حرّاً على هواه. أما لناحية التوقيت المناسب لترسيم الأخاص في النظام الجديد، وعدد السنوات التي تحدّد صلاحيتهم لذلك سواء بالزيادة أو النقصان، فقد تقرّر أن تقبل النساء من سنّ العاشرة حتى الخامسة عشرة، وأن يقبل الرجال من سنّ الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة.

لم يقضوا كلّ حياتهم (أي سكان دير تيليم) مقيّدين بالقوانين واللوائح والقواعد، بل وفق هواهم وإرادتهم الحرة. كانوا ينهضون من فراشهم حين يطيب لهم ذلك، ويأكلون، ويشربون ويعملون، وينامون وقتما يحبّون ويجدون في أنفسهم الاستعداد لذلك. لم يكن يوقظهم أحد من النوم، أو يفرض عليهم تناول الطعام أو الشراب، أو مزاولة أي عمل آخر، فبذلك أوصى غارغانتويا. ولم يطلب منهم، في ظل النظام الدقيق الذي يحكم حياتهم، سوى مراعاة قاعدة واحدة: «إفعل ما تشاء».

الرجال الأمراء كريمو المولد والنشأة الذين تلقوا تربية حسنة وخالطوا رفاقاً أمناء، مدفوعون بحكم الفطرة والغريزة والحوافز التي تحرّكهم نحو الأعمال الفاضلة، كما أنهم معصومون من الرذيلة، وهذا ما يطلق عليه إسم الشرف. وهؤلاء الرجال أنفسهم، حين يتعرّضون للقمع ويخضعون للقهر، يتحوّلون عن ذلك الاستعداد النبيل الذي جذبهم في ما مضى إلى الفضيلة، وينفضون عنهم قيد العبودية الذي كبّلهم به الطغيان الغاشم، لأن من طبيعة الإنسان أن يتوق إلى الممنوع ويرغب في المحظور.

بهذه الحرية دخلوا في تنافس محمود جعلهم جميعاً يقبلون على ما يسعد كلاً منهم، فإذا قال أحد الشبان أو إحدى السيدات تعالوا نشرب، شربوا جميعاً، وإذا قال أحدهم دعونا نلعب لم يتخلّف واحد منهم عن اللعب، وإذا قال أحدهم هيّا ننطلق إلى الحقول ذهبوا جميعاً معه، وإذا رغبوا في الخروج لصيد الصقور أو الحيوانات امتطت السيدات صهوات الجياد اللطيفة وجلسن على السرج الفخمة وفوق أكفهن الرقيقة المغطاة بالقفازات أنواع مختلفة من الصقور الصغيرة، بينما تحمل أكف الشبان أنواعاً أخرى. والتعليم الذي تلقّوه هو أنبل تعليم، فلا واحد منهم ولا واحدة منهن إلاّ ويقرأ ويكتب ويغني ويعزف على آلات موسيقية متنوّعة ويتكلم خمس أو ست لغات مختلفة، ويؤلف فيها كل ما هو طريف من الشعر والنثر، ولم ير أحد قط مثل هؤلاء الفرسان البواسل، ولا يعرف أحد مثل ما عرف عنهم من النبل والكبرياء، والبراعة والمهارة، سواء في مشيتهم أو على ظهور الخيل، ولا شاهد أحداً يفوقهم خفة وحيوية، ورشاقة وسرعة، أو حذقاً في استعمال جميع أنواع الأسلحة. ولم ير أحد سيدات يفقن سيدات تيليم حسناً ونضارة، أو رقة ودماثة خلق، أو براعة في استخدام اليد والإبرة، وفي كل عمل نبيل حرّ تتحلى به بنات هذا الجنس (اللطيف). ولهذا فعندما يحين الوقت الذي يفصح فيه أي واحد من أهل الدير المذكور ـ سواء يطلب من والديه أو لأي سبب آخر ـ عن رغبته في مغادرته، فإنه يصطحب معه إحدى السيدات التي اختارها من قبل لتكون خليلته، وذلك بعد أن يعقد زواجهما. وإذا كانا عاشا في دير تيليم وألف بينهما الوفاء والحب، فإنهما يستمرّان في هذا الحب والوفاء، ويوثّقان عراه، ويحلّقان به إلى أسمى الذرى في ظلّ الحياة الزوجية، كما يستمتعان بهذا الحب المتبادل حتى آخر يوم من أيام عمرهما، فلا يقلّ في عنفوانه وتوهّجه عمّا كان عليه في أوّل يوم من أيام زواجهما.

عندما تثقّف امرأة

■ رولان رياض مشوح*

يقول الفيلسوف سقراط: «عندما تثقّف رجلاً فأنت تثقّف فرداً، أما عندما تثقّف امرأة تكون قد ثقّفت عائلة بأكملها».

من هنا يجول في خاطرنا إمكان مدى تطبيق هذه المقولة على أرض الواقع في ظلّ ما نشهده من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية متردية في عالمنا العربي. فالتراجع الثقافي والتعليمي الذي نشهده جعل الكثير من الأسر تعود إلى ما كانت عليه قبل سابق عهد، إذ عادت غالبية الأسر العربية تعمل على تعليم الذكور وترك الإناث في البيت تحت حجج ومسمّيات كثيرة (الحاجة المادية، الظروف الاقتصادية، الوضع الأمني، مساعدة الفتاة لوالداتها في أعمال المنزل، الزواج في سنّ مبكرة) إلى آخر ما هنالك من أسباب تكرّس الوضع الرديء الذي تعيشه مجمل فتيات اليوم، وهذا يعكس صورة حقيقية عن معاناة المرأة في بعض المجتمعات من نقص حاد في الثقافة بأنواعها كافة (دينية، اجتماعية، تربوية، نفسية، صحية، علمية، إلخ...)، وعلى اختلاف مستوياتها وأعمارها.

اليوم، ويا للأسف، ما زلنا نرى العديد من الصور والمشاهد في واقعنا العربي تدفع بها إلى الوراء لتبقيها بعيدة عن الساحات والأضواء، ويتناهى إلى مسامعنا عن العديد من الرجال الذين يتشدّقون باسمها وبمشكلتها في الفعاليات الثقافية التي تعنى بالمرأة، والندوات الثقافية، والصالونات الأدبية، وإعطاء إحصائيات ودراسات تؤكد على دورها الإيجابي والفعّال، طارحين باسمها عدداً من الأسئلة حول المشاكل التي تقف عقبة في اتخاذ المرأة دورها الثقافي الكامل. نذكر من هذه الأسئلة:

ما الأسباب الكامنة وراء نقص ثقافة المرأة وكيفية تنميتها؟

ما أثر نقص ثقافة المرأة في المجتمع؟

ما البرنامج التثقيفي اللازم تقديمه إلى النساء في مجتمعاتنا العربية؟

متناسين أنها وحدها القادرة على التعبير عن ذاتها، وهي المبدعة التي تستطيع أن ترسم لذاتها أسس حياتية لنفسها، وأن من حقها وحدها اختيار تقديم الأسلوب المناسب لتعكس صورتها ودورها الأساسي في بناء المجتمع الحقيقي السليم المتعافى.

فهل من المنطقي أن يتراجع دورها اليوم بدلاً من إعطائها مساحة أكبر لتأخذ دوراً ريادياً للمساهمة الفعّالة في بناء مجتمع مدني قوي؟

انطلاقاً من المساهمة الفاعلة للنساء في قضية التنمية الشاملة، والاهتمام بدور المرأة المؤثر في تنمية المجتمع كجزء أساسي في عملية التنمية ذاتها، بات معلوماً أنّ تقدم أيّ مجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى تقدم النساء فيه وقدرتهنّ على المشاركة في مجالات التنمية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وإلغاء جميع أشكال التمييز بين المرأة والرجل من حيث المشاركة الفاعلة لكليهما في بناء المجتمع.

لكون المرأة نصف المجتمع وهي تربّي نصفه الآخر، غدا من الصعوبة بمكان عرض أيّ مشهد في الواقع المعاش من دون أن يكون للمرأة فيه دور حاضر وفاعل، ورغم دخولها مختلف ميادين الإبداع والثقافة (إعلام، أدب، فن، إلخ...)، لا تزال المرأة العربية تسير بخطى خجولة في مجالات عديدة، وما برحت تزال تحتاج إلى العمل الجاد لرفع السوية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لذاتها وكينونتها.

هنا تكمن أهمية البرامج الموجهة للمرأة في هذه الجوانب بما تحمله من قدر كبير من المسؤولية، فالمرأة تعتبر أساس كلّ نظام، ورقيّ أيّ مجتمع، ومن الضروري أن تكون هذه البرامج ذات أهداف سليمة ومضمونة من ناحية التنفيذ.

كما تتبلور مساهمة المرأة في تطوير المجتمع وبنائه فكرياً ومادياً وأخلاقياً من خلال دورها الأساسي ووظيفتها الأولى في تربية الأبناء وتوجيههم نحو الطريق الصحيح، ومهمتها في تدبير شؤون المنزل والاقتصاد المنزلي، وحرصها على مال أسرتها، ومراعاتها عمليّة الاعتدال في الصرف المادي، والتفريق بين الدفع لاقتناء الكماليات وتلبية الحاجات الأساسية لأسرتها، فبذلك تترابط حلقات البناء بين التربية السليمة لأبنائها، ودورها في عملية التنمية والإنتاج وما تقدمه إلى مجتمعها وأبنائها وأسرتها بما تملك من علم وعمل ومعرفة وأخلاق وآداب عامة وسلوك حضاري يبرز وجودها وأهميتها في استقرار المجتمع، ومساهمتها الكبيرة والفاعلة في البناء الاجتماعي من خلال لمساتها المميّزة في المجالات الحياتية كافة.

لا بد من أن تكون ثقافة المرأة واسعة وشاملة، وأن لا تكون منفصلة عن دورها الاجتماعي الذي يعتبر لبنة العمل الثقافي الذي نحتاج إليه في مجتمعاتنا العربية.

كلمة أخيرة سيدتي: بالعمل المنظم والملتزم تصلين إلى تحقيق هدفك المنشود عملاً لا قولاً، وعلى الرغم من كلّ شيء، ومن كلّ الظروف التي قد تعترضك، ومن كلّ ما تعانيه المرأة في مجتمعنا من إجحاف لحقوقها، نرفع لك القبعة، ولك سيدتي وحدك كلّ الثناء والاحترام كونك العنصر الأهم والأخطر والأشمل في تربية الأجيال وتنشئتها، وتبقى بصماتك حاضرة في كلّ شيء، ولمستك التربوية مطبوعة على ذاكرة الأجيال، وتتحكّم في سلوكياتهم تجاه الأشياء والمواقف والظروف كافة، لذا نحن دائماً وأبداً ننتظر منك مزيداً من الثقافة والتألق والإبداع والعطاء لأنك حقاً رمز لها.

*محامية

فضاء حرّ

في عالم «جوني الماشي»

■ جورج كرم*

في خضمّ كارثة دموية انعزالية حلّت علينا في ليلة صعبة إبان الحرب الأهلية، خلال حملة عاجلة للتبرّع بالدم، سألت الممرضة أحد المناضلين المعروف باسمه الحركي «أبو الكوارث» عن فئة دمه، فأجاب «أبو الكوارث» هذا بفخر وعفوية ظاهرتين: «جوني ووكر»، أي إسم ماركة الويسكي المشهورة ورمزها الجندي البريطاني وهو يمشي بخطى ثابتة إلى الأمام. والوجهة الأمامية للجيش البريطاني كانت وما برحت دول العالم المسالمة، بغية استعمارها واستعمال الرمز العسكري على زجاجة الكحول البريطانية. ليس من باب المصادفة أن تعزز بريطانيا موقعها في الهند وتنقذ جنودها ومستعمريها من الأمراض التي تحملها مياه الشرب ومرض الملاريا أيضاً بواسطة الكحول وشراب «التونك واتر»، أو ماء التونك الذي خلطه المستعمرون مع مشروب «الجين» الذي يحتوي على نسبة من «الكينين» أو الكينا كما يعرف في العامية، وهو يستعمل لمحاربة الملاريا. وبريطانيا التي أنقذت نفسها أيضاً في لندن القرن التاسع عشر، خاصة من الكوليرا التي حملتها مياه نهر «التيمز» باستبدال المياه بمشروب «الجين»، صدّرت أطناناً من الجعة التي طوّرتها خصيصاً لاستعمال جنودها ومستعمريها في الهند تحت إسم «API» أو «إيندیا بايل إيل». قد تكون الجعة من أصل سومري والنبيذ أيضاً، لكن المشروبات الروحية في حلتها العصرية اليوم تأتي من أصل غربيّ ولا أستبعد أن يكون عرق بلادنا من أصل فرنسي تابع لمشروب «البستيس» المطابق للعرق تقريباً، ولنقل من باب الموضوعية إن العرق مشروب روحي متوسطيّ ذو أصول غير محددة.

لن أظلم «ابو الكوارث» وحده في حبه وتعلقه بمشروبات الغرب الروحية، إذ اختبرت موقفاً مماثلاً خلال زيارتي متحف الويسكي في مدينة «إدنبرة» في اسكتلندا، والزيارة تشمل جولة على تاريخ المشروب المشهور ومراحل تطوره وطريقة تصنيفه وتصنيعه. تبدأ بالترحاب بالزائرين في غرفة استقبال تشبه البار من حيث الديكور، وتقدم دليلة المتحف كأساً من الويسكي لكل زائر لدى دخوله غرفة الاستقبال، أيقنت لاحقاً أنه كان مفترضاً المحافظة على ما فيه خلال الجولة في المتحف في مراحلها كافة. وبعد الترحاب ينتقل الزائرون إلى مشاهدة عروض تلفزيونية قصيرة عن سير أشهر صانعي الويسكي وكيف طوّروا المشروب من الحبة الواحدة أو «السنغل مالت» المشهور بعراقته وطعمه المستقر المميز، إلى «البليند» الذي يتكوّن من خليط عدة أنواع من الويسكي ذات الحبة الواحدة، وهو أكثر سلاسة ويتطور مع الزمن وأنواع الويسكي الطاغية على المبيع في الأسواق العالمية جلّها من «البليند». ويبقى للمشروب الأصلي محبّوه ومحبّذوه ومتطرّفوه أيضاً وبعد العرض التاريخي والشرح المسهب عن أنواع التربة والوقود التقليدية المستعملة في عملية التقطير والتي تضفي نكهة ترابية دخانية على المشروب الأصلي، دخلنا غرفة ذات إنارة خاصة وطلب الدليل التأمل في لون المشروب تحت الضوء من خلال الكأس الزجاجية التي قدمت إلينا آنفاً، وحمل الزائرون كؤوسهم إلى الأعلى، أما أنا فلم أحمل سوى وجنتيّ الحمراوين خجلاً إذ كنت شربت الكأس قبل نصف ساعة، كيف لا وبيني وبين «جوني الماشي» (ووكر) خبز وملح، وصديقي «أبو الكوارث» دمه كله يتكوّن من الخليط اللذيذ؟ شهدت دليل المتحف إحراجي وهي فتاة فرنسية من فرنسا. لا تسألوني كيف ذلك. خاطبتني بالفرنسية سائلة إن كنت في حاجة إلى كأس أخرى وقدّمتها إليّ مازحة، طالبة مني ألاّ أشربه بنهم مثلما فعلت مع الكأس السابقة، وأن أحافظ عليها حتى نهاية الجولة، وقد تكون جذبتها نعومة إبنتي الطفلة رفيقة سفري لسنين عديدة خلت.

كما في الحرب، كذلك في السياسة، تلعب المشروبات الروحية الغربية دوراً حاسماً، ولفتتني فاعلية إعادة افتتاح مركز حزب الكتائب في برمانا حديثاً، على ما قرأت في الصحف، وكان المركز المذكور أقفل ابوابه لسنوات عديدة بعدما وضعت الحرب اللبنانية أوزارها، ولم تعرف برمانا قط بميولها الكتائبية، لكن الحرب الطائفية كانت لها ضرورات وأحكام، ومنها افتتاح مراكز للأحزاب الطائفية عنوة وبطريقة فاشية، بمعزل عن وجود شعبية لها في القرى. وكانت الويسكي عاملاً أساسياً في شدّ العصب الكتائبي في المدينة المشهورة بحبها للمشروبات الروحية. وفيما لم يزر المركز الكتائبي أحد من أبناء القرية طوال السنة، حج كثر إلى المركز المذكور في عيد تأسيس الكتائب بعدما جذبتهم رائحة الويسكي المعروفة، وهي استراتيجية اضطر مسؤولو الحزب إلى اتباعها لحشد مؤيدي «جوني ووكر» في المركز ولو لساعات عديدة تحت عنوان «الاحتفال الحزبي»، وطوّر بعض ظرفاء البلدة جسراً جوياً بريا آنذاك بين شباك المقر الكتائبي والغابة الخلفية لسرقة عشرات الزجاجات بخفة منظمة، كوميدية جداً. أما الآن وقد أعيد افتتاح المركز الكتائبي مجدداً ولم يكن اسمي بالطبع ضمن لائحة المدعوين، لا أدري كيف طوّرت سنوات التحالف بين الكتائبية والوهابية السياسية نهج الأولى، ولعلّ الحفل خلا هذا العام من المشروبات الروحية احتراماً لمشاعر الحلفاء الوهابيين ووفاء لدفتر شيكاتهم.

من سياسة القرية وعصبياتها إلى السياسة الدولية حيث نرى المسؤولين «السكرانين» هنا وهناك يتسببون بالحروب الدولية والكوارث السياسية، ومن منا لا يتذكر الرئيس بوريس يلتسين الذي أتى إلى الحكم بعد إصلاحات البيريسترويكا في الإتحاد السوفياتي وسلم بلاده راكعة إلى الغرب والولايات المتحدة خلال عقد غارق في الفودكا الروسية حكم فيه في التسعينات. ومن السياسة المحلية إلى الدولية إلى الإرهاب بأشكاله نرى الكحول تلعب دوراً رئيسياً في القتل والذبح، ومن يظن أن «داعش» هو الذي ابتكر «موضة» قطع الرؤوس وأكل القلوب والأكباد فليبحث جيداً في تاريخنا الحديث وليعد حساباته وليسأل صاحب المقهى الصغير في بلدة بيت مري عن اليوم الذي أتت فيه إليه مجموعة من الشبان من عصابات الجميل وشمعون فشربوا العرق «على معلاق» أحد ساكني مخيم تل الزعتر المنكوب بحقدهم آنذاك، بقيادة «أمير» الإرهاب الديني الأباتي شربل قسيس. وأباتي الأمس «المسيحي» والخليفة «الداعشي المسلم» اليوم سيّان من حيث النهج والإجرام والتمثيل بجثث الأبرياء. وقد يتساءل البعض عن تأثير الكحول في النهج «الداعشي» وهو تنظيم يحرّم تناول الكحول، فإنّ محرّكي «داعش» في قطر الذين أنشأوا هذا التنظيم الوحشيّ وما انفكوا اليوم يحرّكون خيط اللعبة الدموية الإرهابية هم أيضاً من العقول المخرّبة بالكحول، وقد بدأوا بتناول زجاجات كولونيا الـ114 غير الصالحة للاستهلاك البشري لعقود قبل أن تدخل «كوكتيلات» الحانات الفخمة فنادقهم ذات النجوم الخمس اليوم.

*كاتب سوري من جبل لبنان موقعه على الإنترنت www.gkaram.com